٤- عصر الخلافة

لم يصل الشعر الأندلسى إلى أوْجِه الكامل وسمته الجمالى إلا فى القرن العاشر الميلادى الذى يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها: فلم يوفق القديس يولوجيوس إلى استثارة أهل الدين من المستعربين، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسى الذى اعتصم بوُكنته فى بُبَشتر (يشير إلى عمر بن حفصون)، واختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصرُ الجديدة التى حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة، وقد شجع عملية المزج هذه، وعمل على تقويتها، عامل على أكبر جانب من الأهمية: ذلك هو البيت الأموى الذى وقف محايداً وصمد للتيارات المتضاربة كلها. نعم، إنه كان عربيًا صرفًا ـ ومن ثم لم يكن إسبانياً ـ ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشارقة خففت من عصبيته العربية، وجعلته لا يميل إلى العرب وينفض يده من عونهم. ولقد كانت قرطبة بلدًا نصف عربى، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس، يختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذِّنين، وكان بعض شعراء الأندلس يفيئون إلى ظلال البِيَع المستعربية الصغيرة ليصيبوا شيئًا من النبيذ، فجدَّدوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ فى ديور الصحراء أو خيام الرهبان المتأبدين فى القفر. وتجلَّى اختلاط الأجناس بعضها ببعض، وتَجاوُرُ الديانات بعضها لبعض، عن جو سمح جميل إنسانى شفاف: هو نفس الجو الحضارى الذى نعرفه فى بغداد كما تُصوِّرها قصص «ألف ليلة»، خالصًا من كل ما يرتبط بالشرق فى أذهاننا أبدًا من جلافة يشوبها الغموض. هنا قبس الشرق طابع الغرب من نسائم جبل قرطبة الرقيقة الريفية.

كانت قرطبة تتقبل كل شيء وتتمثَّله وتحوِّله إلى شيء آخر بعد تصفيته: فلقد كانت الرايات وملابس الحداد مثلاً سوداء فى بغداد، فأصبحت بيضاء فى الأندلس، وفى تلك الأيام كانت الممالك النصرانية فى الشمال تعيش فى جو قروى فقير، أما ملوك إسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة: عبد الرحمن، والحكم، والمنصور[1]. وبين أيدينا مصاديق ذلك لائحة للعيان: فهذه أقواس المسجد الجامع قائمة إلى اليوم سابحة فى «شبه ظل» يروع النفس، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران، وتضم الكنائس الجامعة الإسبانية والمتاحف اليوم قطعاً من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الأمجاد التى لا يخبو ضياؤها، ويتحدث عنها كذلك ـ بأجْلَى بيان ـ الشعر الكثير الذى أُثر عن أزمانها.

ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١م) دواوين المتنبى وغيره من أئمة القريض العربى القديم المحدث، وعلى بلاط قصر ذلك الخليفة العظيم ـ عبد الرحمن الناصر ـ وابنه الحكم المستنصر العالم الجمّاع للكتب (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م)، والوزير الخطير العظيم السلطان المنصور بن أبى عامر (توفى عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م) وفد سفراء الثقافة المشرقية: من أبى على القالى (دخل الأندلس عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، إلى صاعد البغدادى (وفد عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م). وعلى قصورهم الزاهرة وفدت كذلك سفاراتٌ نصرانية من الغرب، ومن بيزنطة البعيدة حاملة معها ألطافاً بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريد فى الطب، والتى وضعت فى الأندلس بذور نهضة العلوم الطبيعية التى بلغت أوجها فى القرن الثالث عشر الميلادى.

كان حشد حافل من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر فى قرطبة، وفى ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأسنَّتها المشرعة التى لا تُغلب كان الكتَّاب ينشئون، والعلماء يحاضرون إلى جوار عُمُدِ المسجد الجامع، وانصرف الأغنياء إلى التنافس

(١) يشير المؤلف هنا بالمفرد إلى الجمع، فهو يريد بعبد الرحمن عباد الرحمن الثلاثة الداخل والأوسط والناصر، وبالحكم إلى الحكمين الربضى والمستنصر، والمنصور هو محمد بن أبى عامر.

فى جمع الكتب، وغنَّت القيان، ونَظَمَ الشعراء، وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم والنثر.

وإذا نحن استثنينا من استأخر من شعراء عصر الإمارة وعاش ردحًا من عصر الخلافة، ونفرًا من الوشَّاحين، وجدنا فى طليعة شعراء هذا العصر ابن عبد ربه (توفى عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) صاحب «العقد الفريد» الذى بهر القلوب بمدائحه، وابن هانئ الإلبيرى (توفى عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م) الذى لم يلبث أن غادر الأندلس ولحق بملوك المغرب، والذى شبَّه المعرّى شعره «برحى تطحن قرونًا» (ابن خلكان ـ ترجمة ابن هانئ)، والزبيدى (المتوفى عام ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، وابن أبى زمنين (توفى عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)، وأولئك الشعراء الذين ذكرهم ابن حزم فى «رسالته»، والمصحفى (توفى عام ٣٧٢هـ / ٩٨٢م) الذى جرّده المنصور من طارفه وتليده، وابن فرج الجيانى (توفى عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) صاحب «كتاب الحدائق» الذى ضاهى به «كتاب الزهرة» لداود الأصبهانى، والشاعر الرقيق «الأمير الطليق» (توفى عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) الذى أُودع المحبس لقتله أباه، وكان يغار منه، وابن شُخيص الرمادى (توفى عام ٤١٣هـ / ١٠٢٢م)، وابن إدريس الجزيرى (توفى عام ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م)، وابن دراج القسطلى (توفى عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) وكان شاعرًا معقدًا عسير الفهم مثل جُنْجُره (Gòngora) الشاعر الإسبانى، وابن بُرْد (توفى عام ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م)، وغيرهم كثيرين. ولابد أن نذكر من بين الكثيرين الذين ظهروا بعد ذلك بقليل: أولئك الشعراء الذين عاشوا فى أيام عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله ـ الذى لم يطل حكمه (توفى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م) ـ فقد أحاطت به هالة من أهل الأدب، وكان هو نفسه أديبًا.

وقد نظم الأندلسيون فى كل فن وباب: من الزهديات والتاريخيات إلى النَّوْرِيَّات التى أكثر الناس منها على عصر المنصور.

* * *